الطقوس البيعية

لحضرة الخوري نعمة الله مبارك المرسل الكريمي

المراد بالطقس البيعي ترتيب ونظام العبادة الخارجة فقه. وهو من الاهمية بمكان حتى ان الكتب المقدسة والمجامع المسكونية والاقليمية اكثرت دائمًا من الاوامر والتحريجات بالمحافظة عليه ولذلك وجهت شركة الصلوة في مدة شهر شباط من هذا العام صلواتها بنوع خصوصي لاجل المحافظة على الطقوس البيعية

فاهمية المحافظة على الطقوس بمنزلة أهمية العبادة الخارجة فقه. فمن المعلوم ان العبادة الخارجة فقه مؤسسة على احدى خواص الكنيسة الجوهرية اي كون الكنيسة منظورة. فالايمان الكاثوليكي يعلمنا ان السيد المسيح جعل كنيسته منظورة اي محسوسة وجعل فيها وسائل الخلاص اي الاسرار والصلوة تحت صور منظورة محسوسة لكي يتمكن الناس من الاهتداء اليها ويجدوا فيها خلاصهم الابدي ولذلك قد شبهها الخلاص لاسمه المجرد بالمدينة المبنية على جبل التي لا يمكن ان تخفى على ناظر (متى ٥ : ١٤) ومن ثم لزم ان تؤدى فيها العبادة فقه وتخدم فيها الاسرار المقدسة بنوع منظور ومحسوس. وان يكون ذلك بنوع مرتب ومنتظم

١ نعم ان جوهر العبادة فقه يتوقف بوجه أولي على العبادة العقلية كقول الخلاص: ان الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي ان يسجدوا (يوحنا ٤ : ٢٤) لكن الانسان مركب من نفس وجسد فينبغي له ان يعبده تعالى عبادة مزدوجة اي عبادة باطنة عقلية قائمة باعمال الفضائل الالهية الايمان والرجاء والمحبة. وعبادة خارجة محسوسة قائمة بانواع السجود والصلوات اللفظية والذبائح وما شاكل ذلك لان الذي خلق النفس والجسد للانسان وجبت له اعمال العبادة من كليهما. ثم ان الانسان عضو من اعضاء الهيئة الاجتماعية فيلتزم بالعبادة الخارجة لاجل بنيان القريب. قال القديس ترما (٢ : ٢ م ٩١ ف ١) : « لا يظن احد ان الكنيسة المقدسة رسمت الصلاة اللفظية والتراتيل لتوضح بها فقه عواطف قلوبنا واشواقنا كلا . . . لان الله عارف بافكارنا قبل ان نوردها. وانما نتلوها بصوت عال لمنفعتنا نحن »

فالناس في هـذه الدنيا لا تتأثر عقولهم وقلوبهم عادةً ولا تكتسب شيئاً من الخارج الّا بواسطة الحواسّ كما يعلم الفلاسفة. فاذا عاينوا الاحتفالات الدينيّة الخارجة وسمعوا الالحان الكنائسيّة الخاشعة واستنشقوا عرف البخورات الزكية ارتفع عقلهم الى الله وتذكّروا الاحترام الواجب لعزّته تعالى ورفعوا لجلاله التسابيح الملائكيّة وبخور الصلوات في مجامر القلوب مُؤدّين لهُ عزّ وجلّ عبادةً عقليّة وقلبيّة

ولا غرو لانّ الاشياء الخارجة كثيرًا ما تحرّك عواطف النفس او تسكن اضطرابها أو تهيّج فيها عوامل الحزن او الفرح وذلك ما أعلن به القديس اغسطينوس في كتاب اعترافاته (ف ٦) حيث قال: « الهي ما اكثر الدموع التي كانت تجري من عينيّ عند استماعي انغام تسبيحك ومدائحك الكثيرة وكم كنت استعذب اصوات كنيستك التي كانت تطرق سمعي فكان حقّك يلج قلبي ويضرم فيهِ عاطفة التقوى فأذرف الدموع وبهذا يستكنّ وجع قلبي ». وليس هذا الامر بغريب عن روح الكتاب المقدس لان اليشع النبي عند اضطرابه طلب زمّارًا يرتّل له ويسكّن اضطرابه ويعدّهُ لقبول روح النبوة (٤ ملوك ٣: ١٥) فالاحتفالات الخارجية هي بمنزلة جناح وريش تساعد العقل على ان يطير ويرتفع الى الله باكثر سرعة ولهذا يقول القديس يعقوب (٥: ١٣): هل فيكم مكروب فليُصلِّ او مسرور فليُرتّل. والقديس بولس الرسول يحث المسيحيين على ترتيل التسابيح والمزامير واغاني الروح (افسس ٥: ١٩). فلهذا السبب ايضًا امرت الكنيسة المقدسة ان تقام الاحتفالات أيام الآحاد والاعياد بامارات الفرح والعظمة وفي سنّة الآلام بشواعر الحزن والكآبة لكي يتذكر المؤمنون بنوع حيّ افراح السماء والاوجاع التي احتملها المخلّص ليربح لنا الملكوت

وهذه العبادة الخارجة قد انتشرت عند كل الامم التي اعتقدت بوجود الالوهيّة. فقد شادوا لهذا الغرض الهياكل والمذابح وأقاموا الصلوات رصّفوا التسابيح والتراتيل ورتّبوا الطقوس والاحتفالات والاعياد الخ. وقد امتاز الشعب الاسرائيلي بفرائضهِ الدينيّة الخارجة. ولذلك رسم الله لموسى الذبائح والتقادم والصلوات والنذور الخ كما نرى ذلك مفصّلًا في سفر الخروج وسفر الاحبار. وقد رنّم موسى تسبحتهُ الشهيرة بعد اجتيازه البحر الاحمر وكانت مريم اخته تضرب على الدفّ والمزمار وتردّد اللازمة مع بنات اسرائيل (خروج ١٥: ١٢). وداود الملك قد اجرى عادة ترتيل المزامير على آلات

موسيقية واقام المرتلين امام المذبح يرنمون احسن الترنيم (٢ ايام ٥ : ١٢)

والمخلص لاسمه السجود لم ينقض العبادة الخارجية بل بدّل انواعها بما هو اشرف واسمى فبدّل الذبائح الدموية برسم ذبيحة الافخارستيا الغير الدموية. وأمر باستعمالها على مدى الاجيال بقوله: «اصنعوا هذا لذكري الى مجيئي». واقرّ استعمال الصلوات اللفظية وانواع السجود واحتفال الاعياد بكلامه ومثاله. فقد علّم رسله ان يصلّوا قائلين: «ابانا الذي في السماوات الخ» (متى ٦ : ٩). وكان يذهب كل سنة مع ابويه الى اورشليم لاحتفال عيد الفصح (لوقا ٢ : ٤١). وقد سبّح مرتلاً مع الرسل بعد العشاء الاخير (متى ٢٦ : ٣٠) وقد جثا على ركبتيه في بستان الزيتون (لوقا ٢٢ : ٤١) وخرّ على وجهه الى الارض مصلياً (متى ٢٦ : ٣٩). وجرى الرسل من بعده على مثاله وهكذا فعلت الكنيسة كلها في كل اجيالها. وقد ألهمَ الروح القدس مدبّرُها الالهي احبارَها وقديسيها ان يصنفوا المدائح والترانيم ويرتبوا الطقوس الخارجة ليقوم بها المؤمنون في الزمان والمكان المعيّنين. وذلك لتكون البيعة الارضية على مثال البيعة السماوية تمجد الحمل الالهي المقرّب على مذابحنا كما يمجده في السماء المختارون على اصوات الكنّارات (رؤيا ١٥ : ٢). فالعبادة الخارجية هي بمنزلة اعتراف بالديانة ومجاهرة بالايمان لان المخلص لا يطلب منّا ان نؤمن به بالقلب فقط بل ان نعترف به بالفم ايضاً ولذلك قال عزّ من قائل (متى ١٠ : ٣٢ ولوقا ٩ : ٢٦): «من يعترف بي قدام الناس اعترف به قدام ابي الذي في السماوات. ومن يستحي بي وبكلامي يستحي به ابن البشر عند مجيئه في مجده»

٢ فضرورية اذاً العبادة الخارجة لله وضروري ايضاً حفظ نظامها وترتيبها او بعبارة أخرى حفظ الطقوس. فتشويش النظام في العبادة وعدم المحافظة على الترتيب يؤديان الى تشويش العقل ويزيلان الهيبة والرونق فيفوت الغرض المقصود. فالكتب المقدسة والجامع الكنائسية قد عنّت اهمية كبرى على هذا الامر. فيوذا موسى النبي قد رتّب كلّ شيء مفصّلاً وامر الاحبار واللاويين ان يجروا عليه مدقّقاً. وخالقنا الالهي عند ما اراد ان يقدس الافخارستيا ارسل اثنين من رسله هما بطرس ويوحنا ليعدّا غرفة مفروشة مزيّنة (لوقا ٢٢ : ١٢). والقديس بولس الرسول في رسالته الاولى الى اهل كورنتس (١١ : ٢٠—١٠) وبّخهم على عدم حفظهم النظام والترتيب في

حضورهم عشاء الرب (١١ : ٢٠) ولامَ نساءهم على كشف رؤسهنّ عند الصلوة (١٨ : ١٣) ثم وضع لهم ترتيبات أمرهم ان يجروا عليها موقتاً ثم وعدهم انهُ سيرتب ما بقي متى قدم اليهم . ثم شدّد الامر عليهم بان يكون كل شيءٍ على وجهٍ لائق ومنتظم

وكذلك المجامع المقدّسة فانها قد اشبعت الكلام عن هذا الامر . منها ما جاء في المجمع اللبناني عند كلامه على ذبيحة القداس حيث يقول :

يتبيّن على جميع الكهنة ان يكونوا محيطين علماً ومعرفةً بالاحتفالات والطقوس المقدسة وعليهِ فتتقدم الى الرؤساء المحلّيين وتحثهم ان يخرّجوهم فيها من قبل ان يرقوم الى درجة القسوسية كما انهُ يجب على الجميع ان يرعوا نظاماً واحداً بعينهِ سواء كان القداس ذا حفلة او عادياً (عدد ٧) (وقال ايضاً عند تكلمهِ عن صلوة الهورس) : نأمر بأن يوضع للكاتس الكاتدرائية والاديار الكبيرة قوانين مفصلة حكمةً وسداداً وتقوى تكفل بحفظ نظام الهورس وترتيب الفروض الالهية ورعاية الخشوع حاثين على خدام الهورس قاطبةً ان يرعوها بالتدقيق وعلى رؤساء الهورس خاصةً ان لا يتغاضوا حدوث أدنى خلل فيها ولاسيما في ما يلاحظ الدخول الى الهورس والخروج منهُ (عدد ٣)

فهذا حق وواجب لانهُ اذا كان ملوك الارض يطلبون حفظ النظام في جيوشهم مع ان ليس وراء ذلك سوى غايات بشريّة ومجد عالمي فكم بأولى حجّة يجب ان ينتظم جنود رب الجنود . فالكنيسة المقدسة ما هي الّا صورة لكنيسة السماء لان الله امر موسى ان يصنع كنيسة العبرانيين على المثال الذي اراه اياه على الجبل (خروج ٢٥ : ٤٠) . ومخاصنا لاسمه السجود صنع الكنيسة المقدسة كذلك لكن على نوع اكمل فمن الضرورة ان يكون النظام في احتفالاتها صورةً لنظام الملائكة في السماء . فعلى هذا النظام يتوقف جمال الكنيسة الخارجي الذي تتزيّن بهِ سفر النشيد بقولهِ (٦ : ٩) : « من هذه المشرقة كالصبح الجميلة كالقمر المختارة كالشمس المرهوبة كصفوف تحت الرايات » . بهذا النظام يرتفع العقل الى الله وينشغف القلب بحب الديانة ويُرغم المتشدقون والمجدفون على الديانة ان يغيّروا لهجتهم ويهتفوا مع بلعام قائلين (عدد ٢٤ : ٥) : « ما اجمل خيامك يا يعقوب واخبيتك يا اسرائيل »

فالملوك والاراكنة يتهيّبون الحفلات الدينيّة متى كانت متقنة جيداً . فهاهوذا فالنس الاريوسي الذي كان عاهل القسطنطينيّة فانهُ لمّا دخل كنيسة قيساريّة ورأى القديس باسيليوس الكبير يقيم الذبيحة الالهيّة وحولهُ الكهنة والشمامسة قائمين بخدمتهم بكل

اجلال ونظام وخشوع وهيبة استولت عليه الرجفة وكاد يسقط على الارض لو لم يسنده اعوانه . وكم نرى من الناس يتهافتون من كل فجٍّ الى حضور الاحتفالات الدينيّة التي تقام في عاصمة الكثلكة عند تثبيت القديسين مثلاً

غير ان الذي يذهب برونق الطقوس وبهائها انما هو (اوّلاً) روح الاستئثار والاستبداد اي ان يغيّر المحتفل ويُبدل حركات الطقس على هوى نفسه . (وثانياً) روح الاستخفاف والاهمال وقلّة الاكتراث اما هرباً من التعب واما ضنّاً بالوقت فمتى ساد هذان الامران « جعلا الكرم خراباً والتين حطاماً فيقشرانه باسنانهما المشبهة اسنان الاسود ويبذانه فتبيضّ اغصانه » (يوئيل ١ : ٧) اي تصبح العبادة الخارجة فقه خالية المعنى وامتهاناً للدين اذ يصير لكل كاهن طقس مخصوص ونظام مستقل ولا يعود فرق بين الاحتفالات والايام الاعتيادية فتخمد الحركة الدينيّة وتموت الشواعر التقويّة

ولهذا اوصى القديس بولس اهل تسالونيكي (٢ تس ٣ : ٦) ان يتجنبوا كمحروم ذلك الذي يخالف الترتيب والنظام حيث قال : « نوصيكم ايها الاخوة باسم ربنا يسوع المسيح ان تتجنّبوا كل من يسلك من الاخوة على خلاف الترتيب بغير مقتضى التقليد الذي تسلّموه منّا . وقد ورد في المجمع التريدنتيني في جلسته السادسة وقانونه ١٣ ما نصّهُ :

ان طقوس الكنيسة الكاثوليكية المقبولة والمثبتة والجاري استعمالها في مباشرة الاسرار المقدسة الاعتيادية لا يمكن احتقارها ولا ابطالها اختياراً من الخدّام بدون خطا ولا تبديلها بطقوس أخرى من اي راعٍ كان

وعلى ذلك قد نعى المجمع اللبناني بالتشديد عن تبديل الطقوس البيعيّة المقبولة بأخرى جديدة على حسب الهوى ولو كانت من طقوس كنائس أخرى . ثم يأمر كل كاهن ان يكون نصب عينيه وبين يديه كتاب الطقسيّات . . . ليتسنّى له القيام بخدمته كما ينبغي خلواً من ان يزيد شيئاً او يحذف شيئاً (في الاسرار عموماً عدد ٢)

فهذه الدواعي وما شاكلها قد حرّكت غيرة السيّد الفضائل البطريرك الياس بطرس الحويك السامي الملتهب غيرةً على مجد الله واصلاح شؤون طائفته ان يأمر اولاده آباء الرسالة اللبنانيّة المارونيّة بوضع كتاب يجمع شتات الحركات الطقسيّة ونظامها ليُرجع اليه في احتفال القدّاس الالهي وصلوات الفرض في الخورس والجنازات والرتب البيعيّة والطوافات وغير ذلك من الطقوس والعبادات . فتفرّغ لهذا العمل بعض

الاباء المذكورين ونقّبوا في مكاتب المدارس والاديار والكرسي البطريركي على الكتب الخطيّة والمطبوعات وقابلوا ما بينها وجمعوا ما امكنهم جمعهُ ونظموا كتاباً سمّوهُ «مناثر الطقسيات» وعرضوهُ على انظار السيد البطريرك الكلي الطوبى فبعد ان شرّفهُ بنظرهِ السامي وطالعهُ بعض السادة الافاضل والكهنة الاجلاء في الكرسي البطريركي اجاز طبعهُ والعمل بموجبهِ وأمر في منشورهِ الصادر في ١٨ شباط من العام الحاضر بالاعتماد عليهِ. فكفى بهذا تحريضاً لاكليروس الطائفة المارونيّة ليُقبلوا على اقتنائهِ ومطالعتهِ وقد وافق تمثيلهُ للطبع أواخر شهر شباط الذي فيهِ كانت شركة الصلوة توجّه صلواتها لاجل احترام الطقوس البيعيّة والمحافظة عليها فكأنهُ جاء ثمرةً لصلوات المومنين. وقد كان النتاج من طبعهِ في اواسط شهر أيار ليكون بمثابة هدية من المؤلفين لمريم العذراء والدة الحمل الالهي الذي هو غاية كل طقس واحتفال كما انهُ مبدا كل خير وصلاح. فنسأل فادينا الالهي ان يعود هذا الكتاب لتمجيده ومنفعة النفوس وان يجزي كل من تعب فيهِ خير الجزاء. امين

الفتاوى الاركيّة في المعتقدات الدينية

نظر للاب لويس شيخو اليسوعي

انَّ اللبناني في وطنهِ كأرز جبالهِ فيكون طيّب الاريحة شديد البنية باسق الفروع صافي الجوهر لا يعتريهِ الفساد حتى بعد توغّله في السنّ. وما ذاك الّا لحسن التربة التي ينشأ فيها ويترعرع في نواحيها ويستنشق هواءها الطيّب فيُضحي عنصرهُ اشبه بعنصرها حتى يرقد رقادهُ الاخير في ظلّ سمائها وقرب الكنيسة التي تولد نفسهُ عند الوفاة لافراح النعيم كما اولدتها بالمعموديّة الدين المستقيم

تلك صورة اللبناني في جبل قدسهِ على انَّ بينهُ وبين ارز لبنانهِ شبهاً آخر وهو ارتياحهُ الى وطنهِ بحيث لا يُحبّ ان يُغرس في غيرهِ من الاوطان فان غُرس فَقَدَ شيئاً من محاسنهِ ومميزاتهِ الجدّيّة. كذلك اللبناني اذا انتقل بالهجرة الى بلاد اجنبيّة قلّما يصون في قلبهِ تلك السجايا الطيبة والخلال الممدوحة التي كان يمتاز بها في وطنهِ. وكفانا